فكاهات

حياةٌ بحياة[1]

كان يُرى على شاطئ البحر في الجهة الشمالية من بريطانيا كوخٌ حقير مبني من بعض الاخشاب والتراب يقيم فيهِ رجل وزوجتهُ وولدٌ صغير لهما يدعى ارمان. وكان الرجل صيادًا متقدماً في العمر لم يبقَ لهُ من طرق العمل والكسب الاّ صيد الاسماك فيحمل ما يصيدهُ الى اول بلدةٍ تقرب من كوخهِ فيبيعهُ بثمنٍ بخسٍ ويبتاع القوت الضروري لهُ ولامرأتهِ وولدهِ. وكثيرًا ما كان يحدث ان يلمّ بالرجل اعتلال أو يمنعهُ هيجان البحر من الصيد فيبيت اهل ذلك الكوخ ليلتهم بدون قوت عرضةً لانياب الجوع والبرد الشديد غير انهم احتملوا مصائبهم صابرين ووطنوا انفسهم على مقارعة الخطوب واستقبال القدر كيف جآء. ومضت عليهم في تلك الحال سنوات عديدة الى ان بلغ ارمان الحادية عشرة فكان يساعد والدهُ وقد اصبح شيخًا ضعيف الهمة في حمل الصيد والقآء الشباك ورفعها

وفي ذات يومٍ عاد الصياد الى بيتهِ مسآءً وعلامات اليأس بادية على وجههِ فاستقبلتهُ زوجتهُ كعادتها بوجهٍ باش وجعلت تسليهِ وتسرّي عنهُ لانها كانت تكتم في صدرها ما تقاسيهِ من شظف العيش ومرارة الحياة واذا عاد زوجها استقبلته بحنانها وبدّلت جحيم كدرهِ بجنة مؤاساتها فينسى المسكين همهُ ويخال نفسهُ في نعيم. وبعد ان جلسا حينًا قالت لهُ ما لي اراك ايها العزيز على خلاف العادة لا تبدد تسابيتي اياك غيوم الهموم المنتشرة على وجهك. قال اواه ايتها الحبيبة انهُ لا يمكن ان ندوم على هذه الحال فاني شاعرٌ بتناقص قواي يومًا فيومًا فاذا منعني الكبر والضعف عن تحصيل القوت فماذا يحل بنا وكيف يتمكن ولدنا الصغير من القيام بثلاثة

(١) معرّبة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

اشخاص وهو لا يكاد يعرف حتى الآن كيف يلقي شبكتهُ ولا تقوى يداه الضعيفتان على هذا العمل الشاق . بل اي مستقبلٍ يرجى لهُ الا أن يعيش كما عاش والداهُ في هذه الارض المقفرة و بلوغ الحالة التي نحن فيها . قالت خفف عنك يا عزيزي فان للكون خالقاً يعتني بأمورهِ ويدبر احوالهُ فهو لا يتركنا في زمن الضيق والشيخوخة ولن يتخلى عن ولدنا هذا . فقال الصياد لا اشك في ذلك ايتها الحبيبة لكنني لا انكر ان على الانسان السعي وعلى الله التدبير . وقد قابلتُ اليوم البائع الذي يشتري مني السمك وسألني عن احوالي فبسطت لهُ حقيقة ما نحن فيهِ وهو الذي وجه افكاري الى مستقبل ولدنا ارمان وقد نصحني نصيحةً اراها في منتهى الحكمة ولكنني ينفطر قلبي عند تصور امكان حدوثها . قالت وما هي هذه النصيحة . قال اشار عليَّ ان ارسل ارمان الى باريس فانهُ اذا بلغ تلك المدينة العظيمة لا يعدم وسيلة الاستخدام في محلٍّ ما ولهُ في اجتهادهِ ونشاطهِ وذكآئهِ كافلٌ بتقدمهِ عسى الله ان يأخذ بيدهِ فيبلغ يوماً سعادة الاستقلال بعملٍ خاصٍّ لهُ . فصاحت الزوجة المسكينة ماذا تقول . . وكيف نحيا اذا بعد عنا ولدنا الوحيد وهو رجآء حياتنا في ايامنا الاخيرة . فقال الصياد وقد ترقرقت الدموع في وجنتيهِ هذا ما يكسر قلبي ايتها العزيزة ولكنني ارى نفسي من الجهة الاخرى مسؤولاً عن سعادة الولد ومستقبلهِ وليس من العدل ان نضحي مستقبل هذا الولد لمجرَّد سرورنا ومراعاةً لعواطفنا الابوية ونحن في حالة فقرٍ وليس في يدنا ما نعوض عليهِ بهِ بعد مماتنا . وكانت نتيجة هذه المحادثة ان قام الاثنان عن الطعام ولم يذوقا شيئاً منهُ فانزوى الرجل الى جانب الغرفة واطرق مفكرًا وقامت الوالدة لرفع الطعام وقصآء اشغالها البيتية وهي ساكتة صامتة ولما انتهت جلست على سريرها وتضرعت الى الخالق عزَّ وجل ان يدبر ما يراهُ

ولم يفت ارمان كلمة من حديث والديهِ فلما ناما بقي مستيقظاً يفكر فيما سمعه ويحللهُ في رأسهِ الصغير الى ان تكاثرت عليهِ الآمال فاتعبتهُ ونام نوماً هادئاً حلم في اثنآئهِ انهُ سافر الى باريس واقام فيها وانهُ اصبح ذا مالٍ فاستقدم اليهِ والديهِ وعاش واياهما بمنتهى السعادة والسرور . فلما استيقظت والدتهُ صباحاً رأت فمهُ الصغير وقد

رُسم على شفتيهِ الحمراوين تبسمٌ لطيف اعارهُ جمالاً ملائكيًّا فانحنت عليهِ وقبلتهُ بمنتهى الحنو والحب . فاستيقظ ارمان ورأى والديهِ بجانب مضجعهِ فقال اهلاً بكما فكيف تريان بيتي الجديد . ثم اجال نظرهُ في الكوخ فعلم انهُ كان لا يزال تحت اضغات الحلم فضحك وقص عليهما حلمهُ . ثم قال لابيهِ دعني اذهب يا ابتاه الى باريس لاني اعتقد ان حلمي لم يكن الا وحياً يدلني على الطريق الذي يجب ان اقصدهُ . فقالت والدتهُ دع عنك هذه الافكار يا ولدي فأنت لا تقوى على السفر وهب انك سافرت وبلغت باريس سالماً فمن يضمن لنا انك تجد فيها عملاً وماذا يحل بك في الغربة وانت بدون عملٍ ولا دراهم . قال لا يخلق الله يا اماه انساناً ويهملهُ فلا يتركني اموت جوعاً وان لم اصل الى حالةٍ احسن من الحالة التي انا فيها الآن فلست بواصلٍ الى ادنى منها . فقال والدهُ قد تكلمت صواباً ايها الحبيب وما كنت لامنع سفرك من الآن لولا خلوّ يدي ولو من مبلغ يكفي لان تصل بهِ الى باريس . فقال ارمان لا لزوم لذلك يا ابتاه فان غاية ما يلزمني قوتُ يومٍ يوصلني الى اول بلدةٍ في طريقي فمتى بلغتها لا اراني اعدم فيها وسيلة للعمل وتحصيل قوت يوم آخر يوصلني الى بلدةٍ اخرى وهكذا الى ان ابلغ باريس . فقالت والدتهُ وكيف يطاوعني قلبي ان ادعك تسافر وحدك هذه المسافة الطويلة . قال خفني عنكِ يا اماه فليس في الطريق وحوش مفترسة ولا اخاف من اللصوص اذ ليس معي ما يطمعهم فيَّ . وانتهى الجدال بين هؤلآءِ الثلاثة على قرارهم وموافقتهم على سفر ارمان في اليوم الثاني فأخذ الصياد شباكهُ وتوجه الى الشاطئ ليصرف عنهُ الشجن وحضنت الام ولدها طول نهارها وهي كلما سمحت لها دموعها ان تتكلم تزودهُ بالنصائح والارشادات . ثم فتحت صندوقها فأخرجت منهُ علبةً صغيرة ملفوفة بمزيد الحرص وكان فيها عشرة فرنكات فأعطتها لارمان وقالت لهُ هذا كل ما امكنني جمعهُ في هذه السنوات الاخيرة يا بنيّ ولا حاجة لي بهِ فخذهُ واحرص عليهِ الى وقت الحاجة

وفي صباح اليوم الثاني جهز ارمان نفسهُ واعدت لهُ والدتهُ طعاماً فسار ورافقهُ والداهُ الى مسافة من كوخهما فأعادا الوداع وكان موقفهما يكسر القلب ولحظ ارمان

ذلك فابتعد عنهما مسرعاً و بقيا يراقبانهِ الى ان غاب عن اعينهما فعادا اشباحاً بلا ارواح حتى بلغا الكوخ فانزوى كلٌّ منهما في زوايةٍ فكان مثال اليأس والحزن والكدر

وسار ارمان مسرورًا يعلل نفسهُ بالآمال ويغني لحنًا تعلمهُ من والدتهِ في ايام الصغر . وكان الثلج مغطياً طريقهُ فشعر ببرد شديد فجعل يعدو الى ان اعيا ورأى على جانب الطريق حجرًا فجلس عليهِ ثم اخرج طعامهُ وجعل يأكل منهُ شيئًا . و بعد ما استراح قليلاً شعر ببرد عظيم ثم تذكر والديهِ ورأى نفسهُ وحيدًا تائهًا في العالم الواسع فتساقطت دموعهُ وتغلبت عليهِ العواطف الصبيانية فأخذ يعول وينتحب . ثم كان قوةً جديدة تولدت فيهِ فنهض وعاد الى عدوهِ كالاول ليتناسى افكارهُ المؤلمة وادركهُ المسآء فأجهد نفسهُ الى ان بلغ بلدةً بعد غياب الشمس . فأخذ يسير في احد شوارعها وهو يتلفت الى اليمين والشمال فرأى بنايةً رحبة امام بابها رواق فسيح ورأى في اعلاها صليبًا فعرف انها كنيسة فمال الى الرواق وجلس في احدى زواياهُ ثم عاد الى تناول طعامهِ وكانت قد دبت فيهِ الحرارة فشعر بثقل اجفانهِ فتلا صلاةً كان قد تعلمها من والدتهِ ونام على مقعدٍ خشبي الى ان لاح الفجر

وحالما دارت حركة العمل في البلدة كان ارمان يتجول في ازقتها وهو يعرض نفسهُ على اصحاب المخازن فمنهم من طلب منهُ ان يكنس لهُ المحل ومنهم من كلفهُ حمل بعض الامتعة ليوصلها الى مكان آخر فشعر بلذة العمل ولا سيما عند ما انتهى النهار ووجد انهُ ابتاع طعامهُ للغد و بقي معهُ فرنك اضافهُ الى ما اعطتهُ اياهُ والدتهُ وعاد الى الرواق امام الكنيسة ونام في الليلة الثانية براحةٍ تامة . ولما اصبح استأنف مسيرهُ الى جهة باريس بعد ان استدل على وجهتها وعرف اسم اول بلدةٍ على طريقهِ اليها . وما زال على هذه الحالة يتنقل من بلدةٍ الى اخرى حتى لم يبقَ بينهُ و بين باريس سوى مرحلةٍ واحدة . وعلم ان تلك المرحلة طويلة فمكث حيث كان يومين ليستريح ويقوى على قطع المسافة التي عليهِ اجتيازها ولما كان اليوم الثالث امطرت السمآء مطرًا غزيرًا وتساقط الثلج بكثرة فاضطرّ الى البقآء يومين آخرين ثم عاد الى استئناف مسيرهِ فانطلق تدفعهُ الرغبة الى الامام ويقويهِ الافتكار براحة والديهِ

على احتمال المشقات التي تعترض دون اتمام بغيتهِ

وما انتصف عليهِ النهار حتى رأى طريقهُ مكسوةً بالثلج فتاه عنها وجعل يخبط في ذلك السهل متبعاً الوجهة التي يظن انها تؤدي الى باريس وخشي ان يدركهُ الليل قبل بلوغها فكان يقفز كالايل على تلك الارض البيضآء وما زال كذلك الى ان آذنت الشمس بالمغيب ورأى على نور الشفق قمم بنايات باريس وقباب كنائسها فسُرّي عنهُ واخذ يتابع سيرهُ مطمئنًّا . وسمع في اثنآء سيرهِ صوتاً ضعيفاً فاقشعرّ جلدهُ ووقف هنيهةً فتبين الصوت فاذا بهِ صراخ طفل فتعجب من وجودهِ في ذلك القفر المغطى بالثلوج ودفعتهُ الرغبة ان يستطلع امر هذا الطفل فقصد جهة الصوت الى ان بلغ وهدةً فوجد فيها امرأةً مطروحة على الارض وقد غطى الثلج نصف جسمها وهي تضم الى صدرها طفلةً صغيرة لا يزيد عمرها عن السنتين وقد خلعت الام اكثر ثيابها ولفّت بها طفلتها لتقيها من الموت بردًا ولو كلفها ذلك بذل حياتها . وهال ارمان هذا المنظر فوقف حيناً لا يدري ماذا يفعل ثم اقترب الى الام وناداها فلم تجب فامسها بيدهِ واذا هي كقطعةٍ من جليد فجعل يحرك جسمها ويضع اذنهُ على صدرها فوجد انها ميتة ولا امل في اعادة الحياة اليها فتحول الى الطفلة ورفعها بين ذراعيهِ فنظرت اليهِ بعينين زرقاوين وكأنها استأنست بوجودهِ فتبسمت وحاولت ان تطوق عنقهُ بيديها الصغيرتين . وألقى ارمان نظرةً اخيرة على تلك الجثة الهامدة فرأى انهُ لم يبقَ عليها الا اليسير من ثيابها وفي زندها محفظة جلدية صغيرة مقفلة فأخذها مع الطفلة ثم كانهُ رعبهُ منظر المائتة فابتعد عن تلك البقعة مسددًا خطواتهِ الى جهة باريس . وبعد بضعة ايامٍ لما ذاب الثلج رأى الفلاّحون جثة تلك الام التي قضت شهيدة حبها لطفلتها فلم يعرف احد عنها شيئاً فنقلت الى باريس ودفنت في مقبرة الغربآء وكُتب على قبرها تاريخ ومحل وجود جثتها

اما ارمان فبلغ باريس حاملاً الطفلة وهو يبذل جهدهُ في مداراتها . وكأن قوة غريزية نبهتهُ الى ان الطفلة في حاجة الى القوت ومرَّ امام حانوت لبّان فاشترى منهُ قليلاً وجعل يطعم الطفلة بيدهِ بحنوّ لا يُفرَق عن حنوّ الأمّ . وما انتهت

الطفلة من طعامها حتى القت رأسها على صدر ارمان وغرقت في سبات النوم . وكان ارمان قد استراح قليلاً فاستأنف سيرهُ في شوارع تلك المدينة العظيمة وهو حامل الطفلة بين يديهِ حتى بلغ قصرًا رأى على بابهِ حارساً فاستأذنهُ في المبيت تلك الليلة على جانب الباب فشفق الرجل عليهِ وادخلهُ الى غرفتهِ فوضع الطفلة بكل هدوء على الارض ثم تناول من زادهِ شيئاً وكان قد بلغ منهُ التعب فتمدد بجانب الطفلة وضمها الى صدرهِ ونام . ولما كان الصباح نهض ارمان فشكر الحارس لضيافتهِ ثم حمل الطفلة الى حيث ناولها الطعام كالليلة السابقة . وكان النهار دافئاً والجوّ مصحياً فجعل يطوف بها باحثاً عن خدمةٍ يسوقهُ اليها القدر ولكنهُ قضى اليوم الاول والثاني بدون جدوى ووجد انهُ قد انفق من مالهِ مبلغاً بدلاً من ان يريدهُ . وكان لا يدري ماذا يفعل بالطفلة وهي سبب منعهِ من وجود عملٍ يعملهُ فجلس يوماً على رصيف شارع ووضع الطفلة على ركبتيهِ ثم اسند رأسهُ الى يدهِ وغاص في تأملاتهِ . ومرّ بهِ فتى فقال لهُ مازحاً هل انابتك امك عنها في تربية ابنتها . فتذكر ارمان والدتهُ فانحدرت دمعة على وجنتهِ ثم قال اواه يا ليت امي هنا أو يا ليت أم هذه الابنة لم تمت . ثم دار بينهما الحديث فأخبر ارمان الفتى بقصتهِ فقال لهُ اشير عليك اذن ان تأخذ هذه الطفلة الى دير الراهبات فانهنَّ اجدر منك بتربيتها فضلاً عن انهُ ليس في طاقتك ان تبقيها معك ولا بيت لك ولا عمل لديك . فاستحسن ارمان مشورتهُ واستدل على احد ادیار الراهبات فذهب اليهِ وطلب مقابلة رئيستهِ واعلمها بأمر الطفلة فأخذتها منهُ ثم سلمها المحفظة الجلدية وقال اظن ان من الواجب حفظ هذه كما هي الى ان تكبر الابنة وتستلمها لانها ارثها الوحيد من والدتها فاستلمتها الراهبة منهُ . ولما همَّ بالخروج شعر بحزن لمفارقة طفلتهِ فقبلها مرارًا ومسح دموعهُ بكمهِ وخرج

وكان ارمان اينما ذهب يرى في طريقهِ نفرًا من الجنود الفرنسوية فيتوق الى الانتظام في سلكهم والارتداء بملابسهم ولكنهُ علم ان الجندي كثير التنقل معرَّض للاخطار وهو يفكر في عكس ذلك اي انهُ يسعى للاقامة في نفس باريس واصلاح حالهِ ليأتي بوالديهِ . ولم تمضِ عليهِ مدة طويلة حتى استُخدم في محلٍّ تجاري بأجرةٍ حسنة

فاكترى غرفةً وايقن ان نجم سعادتهِ قد قارب الاشراق . وقضى ارمان في باريس ست سنوات يدأب في عملهِ مواظباً مجتهداً منتبهاً الى دخلهِ وخرجهِ فتوفر لديهِ مبلغ من المال ليس بقليل فاستأذن رئيسهُ وسافر الى والديهِ ليبشرهما بنجاحهِ ويحضرهما بصحبتهِ . ولما بلغ مسقط رأسهِ توجه الى التاطئ حيث كان الكوخ فرأى مكانهُ انقاض ذلك البنآء الحقير ولدى البحث والسؤال من جماعة الصيادين القيمين في تلك الجهات علم ان ابويهِ نوفيا من مدة طويلة وانهما مدفونان تحت انقاض ذلك الكوخ . فأظلمت الدنيا في عيني ارمان وعاد الى البلدة المجاورة فاكترى عمالاً رفعوا انقاض البنآء وبنى لوالديهِ ضريحاً قضى بجانبهِ اياماً يندبهما ويسقي ترى الضريح من دموعهِ ثم رجع الى باريس وقد عرف نفسهُ للمرة الاولى في حياتهِ انهُ اصبح يتيماً وحيداً في العالم الكبير . ولم يعد ما يحول دون بغيتهِ في خدمة الجندية فدخل في سلكها وكان لهُ من اجتهادهِ وذكآئهِ وما كُتب لهُ من التوفيق ما ساعدهُ على الارتقآء فما عتم ان سمي رئيساً لفرقةٍ من الحرس

وبلغ ارمان الخامسة والعشرين من عمرهِ وقد اكتمل بنآء جسمهِ واشرق وجههُ بنضارة الشباب وكانت ملابسهُ العسكرية تزيدهُ رونقاً وجمالاً وتقرباً من قلوب ناظريهِ واصحابهِ . واحبهُ ناظر الجهادية فعينهُ محافظاً للأمن في الجهة الشرقية من باريس فسار بفرقتهِ الى محل عملهِ واكترى بيتاً فاقام فيهِ . وحدث يوماً انهُ فتح نافذتهُ صباحاً فرأى على الجانب الآخر من الشارع بيتاً قد فُتحت نافذتهُ فبان داخلهُ ووجد في تلك الغرفة فتاةً جالسة على كرسيٍّ وامامها قطعة من النسيج الحريري تشتغل انامِلها بتطريزها . وحانت من الفتاة نظرة فرأى ارمان وجهها فشعر بسهمٍ اصاب فؤادهُ ولا عجب فانهُ لا عمل لاله الحب سوى ان يريش مثل هذه السهام كلما سنحت لهُ الفرصة . وشعرت الفتاة بوقوع نظر ارمان عليها فاستحيت وعادت الى شغلها فلبثت مدة قصيرة ثم نهضت عن كرسيها وغابت عن نظرهِ . اما ارمان فلم يفارق غرفتهُ في كل ذلك النهار وهو يسير فيها ذهاباً واياباً ويتطالُّ بنظرهِ الى النافذة لعلَّ فاتنتهُ ترجع الى عملها فيراها مرةً ثانية . ودخلت عليهِ

صاحبة البيت وقد احضرت لهُ طعام المسآء فجعل يحادثها ثم تطرق الى السؤال عن الجيرة فعرف منها ان الفتاة تدعى اماليا وانها يتيمة تسكن في بيت رجل شيخ حرفتهُ التعليم وانها تشتغل بالتطريز وتتكسب منهُ فتحصل في كل شهر ما يقوم بنفقات سكناها وكسوتها وربما ادخرت من دخلها شيئًا . ثم اخذت المرأة تطنب في مدح اماليا وانها منذ جآءت الى ذلك البيت اي من مدةٍ تزيد عن سنة لم ترَ منها سوى العفة والوقار والحرص والاجتهاد . فازداد ارمان ولعًا وتاق الى مشاهدة اماليا مرة اخرى والتعرف بها . وما صدق ان جآء اليوم الثاني حتى اطلّ من نافذتهِ فرأى الفتاة في عملها كالمرة الاولى . ثم نظرت فرأتهُ فصُبغ وجهها بلون القرمز وكاد هو ان يفقد تنفسهُ . ودامت الحال على ذلك اياماً لا يرى ارمان اماليا ولا تراهُ الا مرةً واحدة في اليوم ولم يحصل بينهما كلام ولم يدر يا ان رسل الهيام الغير المنظورة كانت تتبادل بينهما رسائل الحب بلغةٍ سرية لم يتمكن البشر الى الآن من حل رموزها وضبط حروفها . وكانت مدة تراسلها بالنظر تطول يوماً عن يوم فتحقق ارمان ان عند الفتاة مثل ما عندهُ من الهيام فتجاسر يوماً وحنى لها رأسهُ مسلماً فاجابتهُ بالمثل فبقي ذلك اليوم بطولهِ مسرورًا فرحاً كانهُ رقي العرش الملكي . واصبحت عرى الوله محكمة بين العاشقين ولكن لم يجسر احدهما ان يبدأ الآخر بالحديث

وكان ناظر الحربية لا يفتر عن مراقبة ارمان فاعجبهُ جدًّا بحسن سلوكهِ وذكآئهِ الخارق عدا ما رأى فيهِ من النفس الابية ودلائل الشرف والعظمة . فاستدعاهُ اليهِ يوماً واخبرهُ انهُ يودّ مفاتحتهُ بامرٍ سري عظيم الاهمية وسألهُ اذا كان يثق بشرفهِ ان يقوم بما سيعرضهُ عليهِ وانهُ مخير في القبول او الرفض بشرط ان يعاهدهُ على عدم افشآء سرّهِ لمخلوق . فاقسم ارمان للناظر بشرفهِ وتربة والديهِ ان لا يخالف لهُ رغبةً فاكتفى الناظر بهذا القسم فادخل ارمان الى غرفة سرية وبعد ان اخذ التحفظات اللازمة جلس بقربهِ وقال لهُ اعلم ياعزيزي ارمان ان المملكة الفرنسوية الآن منقسمة الى حزبين احدهما يعضد كافل الملك الدوق دورليان والحزب الاخر يكرههُ ويستهجن سياستهُ ويرى ان بقآء هذا الدوق في منصبهِ مجلبة للدمار والويل

على وطننا المحبوب . وانني انا من هذا الحزب الاخير الذي يضم اعاظم رجال فرنسا ونخبة اشرافها . ولما لم يكن من الممكن خلع الدوق ولا اقناع الملك بعزلهِ قررنا وجوب التخلص منهُ وعلمنا انهُ يزور في بعض الليالي ابنتهُ في ديرها فيرجع من هنالك ليلاً بعربتهِ وحدهُ ولا حرس يرافقهُ فرأينا ان نعين اناساً يكمنون لهُ في طريقهِ حتى اذا كان عائدًا يخطفونهُ ويذهبون بهِ الى اسبانيا ولنا هنالك انصارٌ من حزبنا فيبقى اسيرًا عندهم الى ما شآء الله . وقد اعددنا جوازات السفر وكل التدابير المستلزمة ولم يبقَ علينا سوى اختيار الباسل الذي يعهد اليهِ في هذا العمل وقد ضمنت للحزب ايجادهُ اعتمادًا عليك وثقةً بك فهل اخطأت في زعمي يا ارمان . فقال ارمان وقد تهلل وجههُ فرحاً لاعتماد ناظر الحربية اياهُ وثقتهِ بهِ وقال امرك مطاع يامولاي وكان في امكانك ان تؤكد للحزب ان الشخص موجود قبل ان تسألني . فقال الناظر هذا ما كنت ارجوهُ ايها العزيز واعلم انهُ اذا نجحنا في مسعانا هذا فلا تكاد تفرغ من هذه المهمة حتى ترى نفسك في ديوان النظارة الحربية مادًّا يدك للقبض على قضيب المارشالية . فقال ارمان لا تعدني بالمكافأة يامولاي لئلا يُظن انني مأجورٌ لهذا الفعل وانا اود ان افعلهُ عن طيبة خاطر . فقال الناظر قد اظهرت لك جزآء الفوز كما اني لا اخفي عنك ان دون اتمام الامر خطرًا جسيماً وانك اذا عاندك القضآء وعُرفت قبل القيام بذلك لا يكون جزآؤك الا الموت العاجل . فقال ارمان متبسماً سترى يامولاي ان سيري الى القبر لا يختلف عن سيري الى المجد . قال حسنٌ ولكن ربما تُعذَّب للاقرار باسمآء من تعرفهم من رجال حزبنا . قال كن مطمئن البال يامولاي فان عذابات العالم باسرهِ لا تقوى على ان تفتح شفتي ارمان اذا شآء ان بطبقهما . فقال الناظر لا عدمتك ايها العزيز وانهُ يمكنني بعد ما رايتهُ فيك ان ادخلك الى الجاسة الحافلة بحزبنا وهم ينتظرون الجواب فاتبعني . ولما قال هذا اخذ بيد ارمان وقادهُ الى باب قريب وضغط زرًّا ففتح الباب ودخلا دهليزًا انتهى بهما الى غرفةٍ فسيحة منارة بنور ضعيف ورأى ارمان نفسهُ في حضرة جمهور من الكبرآء عرف اكثرهُ . فأخذ الناظر يقص عليهم ما دار بينهُ وبين ارمان فأظهر الجميع

اعجابهم ببسالة الفتى واثنوا عليهِ ثم اعلموهُ ان الدوق سيذهب لزيارتهِ المعتادة في مساء الغد . فتكفَّل ارمان ان يبذل جهدهُ للقيام بتلك المهمة فصافحوهُ جميعاً متمنين لهُ الفوز واعطاهُ الناظر مبلغاً وافرًا من المال ليستعين بهِ على اغراء مساعدين لهُ اذا دعت الحاجة . فانصرف ارمان وهو لا تكاد رجلاهُ تلمسان الارض لاعجابهِ بنفسهِ وقد اصبح مستودعاً في صدرهِ سرًّا هائلاً تهتز لهُ رؤوس كبار الفرنسويين وتقف حياة اعظمهم مقاماً على النطق بكلمةٍ واحدة من فمهِ . واستغرقت زيارة ارمان للناظر القسم الاعظم من الليل فلم يبلغ غرفتهُ الا في الساعة الرابعة صباحاً وعلم ان امامهُ في الليلة الثانية عملاً شاقًّا وسهرًا طويلاً فنزع ثيابهُ وانطرح على سريرهِ ملتمساً الراحة

ولم يستيقظ ارمان من نومهِ الا قرب انتصاف النهار فهبَّ مذعورًا وتوجه حالاً الى نافذتهِ فأطلَّ على غرفة الفتاة فوجد انها قد غادرت عملها فعضَّ على انامله اسفاً ثم جلس في غرفتهِ يفكّر في كيف يقوم بالمهمة التي فوضت اليهِ فرأى ان لا يعتمد على احد لمساعدتهِ وان يكتفي بقوتهِ وحدهُ . ثم جال في فكرهِ ما سيلاقيهِ من الاخطار وما يحتمل ان يصادفهُ من الفشل وانهُ ربما يلقى عليهِ القبض ويحكم عليهِ بالاعدام فطار رشدهُ لا خوفاً من الموت بل خوفاً من ان يموت دون ان يرى حبيبتهُ اماليا . وبقي ارمان على هذه الحالة الى ان ولّى النهار ولم يفز برأى حبيبتهِ فعمد الى رقعةٍ كتب عليها ما يأتي :

« يا منتهى املي

لم يسبق بيننا خطاب ولا مراسلة وقد عرفت اسمكِ وانكِ يتيمةٌ وحيدة وانا كذلك وهذه المساواة بيننا تقوي املي انكِ تحبينني كما احببتكِ حبًّا لايقوى الموت على نزعهِ من صدري . سأغيب ايتها الحبيبة بضعة ايام لقضاء مهمة عظيمة وشديدة الخطر فأطلب من قلبكِ الطاهر ان تتضرعي الى الله من اجلي لاعود سالماً . وان لم ارجع في نهاية هذا الاسبوع فيكون قد قضي عليَّ واذ ذاك فلا اطلب منكِ سوى ذكري والاعتقاد بأني محبكِ المخلص ارمان »

ولما انهى كتابة الرقعة ربطها الى حجر صغير ورمى بها الى غرفة اماليا ثم تمطق

بسيفه واخفى غدارتين في ثيابه وخرج من البيت تسوقهُ المقادير وتقودهُ الآمال حتى بلغ البقعة المقفرة التي علم ان الدوق سيمرّ فيها فتربص في مكنٍ وجعل ينتظر قدوم فريسته

وعند الساعة العاشرة ليلاً سمع ارمان وقع حوافر جياد العربة فاقشعرّ بدنهُ ثم نهض فتقدم الى جانب الطريق واخذ بيديه غدارتيه فما وصلت العربة الى جانبه حتى وثب كالليث المفترس فصوب الغدارة الواحدة الى صدر الدوق والاخرى الى الحوذي وصاح بهما ان من باشر حركة واحدة تخترق رصاصتي صدرهُ. فاستوقف الحوذي الجياد وقال الدوق بصوته المعتاد وبغاية اللطافة وماذا تريد منا ايها الفتى. قال اريد ان تتبعني بدون ممانعة البتة وان تقسم لي بشرفك انك تفعل قبل ان اردّ يدي. فقال الدوق لا شك انك فرنسوي يا هذا ولا يفعل الفرنسوي الا ما يعود بالخير على وطنه فأنا اقسم لك بشرفي انني لا امانعك في شيء مما تنوي عملهُ الى ان اعرف غايتك. ولم يشعر ارمان في اثناء مخاطبته الدوق ان فرقةً من الجنود كانت تتسلل من بين تلك الادغال تحت غلس الظلام حتى اقتربت منهُ ووثب اربعة منها على ارمان فألقوهُ الى الارض موثقًا في اقل من طرفة عين. وكان السبب في ذلك ان بعض شرطة الدوق عرفوا بأمر المكيدة وتفاصيلها فأخبروا الاب ديبوا كاتم اسرار الدوق فوجّه هذه الحامية لانقاذ مولاهُ واحباط سعي المؤتمرين

وأُخذ ارمان الى الباستيل حيث احتمل اصناف العذاب للاقرار عن بقية رفاقه في هذه المكيدة فانكر ان لهُ رفقاء وقال انهُ انما اراد الانتقام من الدوق لعداوة شخصية يضمرها لهُ ثم حوكم وحُكم عليه بالاعدام

اما اماليا فلما عادت الى غرفتها وجدت فيها رسالة ارمان فأخذتها بيد مرتجفة ولم تفرغ من تلاوتها حتى تساقطت دموعها ثم جثت امام ايقونةٍ معلقة على جدار الغرفة فابتهلت الى الله بحرارة فائقة سائلةً لحبيبها النجاة والعودة بسلام. ثم جعلت تراقب يوميًّا غرفة ارمان فلم ترهُ فيها وكانت اخبار محاولة الفتك بالدوق قد ملأت باريس فسمعتها اماليا وبلغها ان صاحب المكيدة ملقىً في سجن الباستيل ينتظر نفاذ

الحكم باعدامهِ . ولما انتهى الاسبوع ولم يعد ارمان فرغ صبرها وكادت تفقد عقلها فوالت البحث والسؤال فعرفت انهُ هو نفس حبيبها وان موعد اعدامهِ في الغد فعادت الى غرفتها حيث استخرطت في البكآء وقضت نهارها في التضرع والصلاة

ولما كان اليوم الثاني نهض ارمان في سجنهِ وقد شعر باقتراب ساعة اعدامهِ فمر على مخيلتهِ ذكرى والديهِ ثم اشخاص المكيدة الذين حافظ على كتم سرهم ثم حبيبتهِ امالیا وهنا تراكمت عليهِ الاحزان وتشردت افكارهُ فغاص في بحار التأملات ولم ينتبه الاَّ عند ما فتح باب سجنهِ فراى جنديين بجرابهما يأمرانهِ بالخروج فسار امامهما بدون وجل كانهما يقودانهِ الى حفلة سرور وليس الى النطع الى ان بلغا بهِ غرفة حاكم الباستيل. وهناك وجد ارمان شخصاً مرتدياً السواد وعلى وجههِ نقاب ثقيل فاشار الحاكم الى ارمان وقال للشخص هوذا السجين فخذهُ واتبع الاوامر المعطاة لك. واذ ذاك نهض الشخص فاقتاد ارمان وخرجا من الغرفة وكان في ساحة الباستيل عربة مطبقة فاشار الشخص الى ارمان ان يدخلها ففعل وتبعهُ الشخص وسارت العربة بهما حسب الاوامر المعطاة للسائق . و بعد مسير نحو ساعة ونصف لم يتكلم الشخصان فيها قط وقفت العربة واذ ذاك اخرج الشخص المجهول رقعةً من صدرهِ ناولها لارمان وقال لهُ اقرأ هذه . ففتحها ارمان بيد مرتعشة واذا فيها ما ياتي

«قد حاولت ان تفتك بي في هذا المكان فقصاصاً لك اهبك حياتك في المحل نفسهِ وعساك ان لا تفكر بعد الآن في اذية كاتبهِ فيليب دوق دورليان »

و بينما ارمان حائر في امرهِ كشف الشخص قناعهُ واذا بهِ امالیا بعينها . فصاح ارمان كمن رأى شبحاً وانطرح على مقعد العربة لافاً ذراعيهِ على عنق حبيبتهِ وألقت هي رأسها على صدرهِ . ولما ملك ارمان روعهُ عاد بحبيبتهِ الى بيتها وجلس بجانبها طالباً منها تفسير ما حصل فقالت

كان ابي ضابطاً في الجندية وحارب مرة في موقعة تحت قيادة الدوق دورليان نفسهِ فحدث ان وجَّه احد الاعداآء سهماً مسموماً الى صدر الدوق ولم يكن من وسيلةٍ لاتقائهِ وكان ابي بجانب الدوق فوثب كلمح البصر واستقبل السهم بصدرهِ

فمات ابي ونجا الدوق . وكانت والدتي قد وضعتني قبل هذه الحادثة ببضعة ايام فما بلغها خبر والدي حتى استولى عليها مرض عضال لم تنجُ منهُ الا بمعجزة . ووجدت لديها بعد شفآئها كتاباً من الدوق يقول فيهِ انهُ يتأسف جدًّا على فقد والدي وانهُ وان يكن غير قادر على اعادة الموتى الى الحياة فهو بالخصوص وفرنسا بالعموم مديونان لوالدتي ولها ان تطلب منهما ما تشآء ليقوما بعملهِ لها . فحرصت والدتي على هذا الكتاب وحفظتهُ عندها مدة سنتين كانت تنفق فيها مما تركهُ لها والدي ولما ضاقت بها الدنيا واصبحت لا تملك شيئاً قصدت باريس وفي نيتها ان تطالب الدوق حسب وعدهِ بما يصلح حالها فعاجلتها منيتها وربيت انا في بعض الاديار وليس لي من ذكرى والديَّ سوى كتاب الدوق وبعض اوراق . فصرفت مدةً في الدير تلقيت فيها بعض العلوم والاشغال اليدوية ثم ملت حياة العزلة فخرجت وقد اتفقت مع الشيخ صاحب هذا البيت وكان يدرّس في الدير فاعطاني هذه الغرفة وكنت اطرز وابيع ما اطرّزهُ فادفع لهُ اجرة الغرفة واجمع لديَّ الباقي . ولما بلغني خبر سجنك وصدور الحكم عليك بالاعدام لبتتُ نهاري نائحة ضارعة ثم خطر لي في المسآء كتاب الدوق فكدت اجن فرحاً والحال اخذتهُ وسرت الى القصر وبعد ممانعة طويلة ويأس عظيم أذن لي في الدخول الى حضرة الدوق وهو آية اللطف والكمال فاستقبلني بوجهٍ بشوش وسألني عما اريد فتلجلج نطقي اولاً ولكنني تصورتك امامي ايها العزيز ارمان فعادت اليَّ قوتي وتكلمت بفصاحة فاخبرتهُ بحالي كما هي واطلعتهُ على كتابهِ الى امي وقلت لهُ قد خلص ابي حياتك بفقد حياتهِ فخلص انت حبيبي بدون ان تخسر شيئاً . ولما عرفني الدوق قال اذًا انت ابنة منقذي من الموت وسقطت عبرةٌ من عينيهِ ثم اطرق مفكرًا كمن يحارب افكارهُ فيما يصمم عليهِ وانا شاعرة ان حياتي معلقة بين شفتيهِ

وبعد سكوت هنيهةٍ خلتها دهرًا اقترب الدوق من مائدةٍ فأخذ ورقةً وكتب عليها شيئاً وختمها بخاتمهِ . ثم كتب ورقةً اخرى دفعها اليَّ واوصاني ان اسلمها اليك كما فعلت وقال لي قد وهبتك حياة حبيبكِ ووفيت الدين القديم الذي عليَّ فعيشي

معهُ بسرور وتذكرا انهُ لم يبقَ عليَّ دينٌ لأفيهُ مرةً اخرى ... ثم قرع جرساً فضياً فدخل بعض قواد الحرس الملكي فأعطاهُ الرقعة وقال لهُ خذ هذه الفتاة الى حاكم الباستيل وقل لهُ يفعل حسب اوامري هذه . فجثا الباستيل وامروني ان اتفنع قبلَ ان تقابلني وتمّ ما تعرفهُ ايها الحبيب

وكان ارمان شاخصاً الى وجه حبيبتهِ وهو لا يدري أفي يقظةٍ هو أم في منام فجعل يقبلها ويشكرها . ثم قال لها ذكرتِ ان والدتكِ توفيت حين كان لكِ من العمر سنتان فقط فكيف عرفتِ تاريخها ومن اين حصلتِ على الاوراق التي ذكرتها . قالت لما تضايقت والدتي كما اخبرتك حملتني واستصحبت المحفظة التي فيهـا هذه الاوراق وقصدت باريس لتطلب مساعدة الدوق فاعترضتها في طريقها الثلوج والبرد القارس وخافت عليَّ من الموت برداً فجعلت تنزع ثيابها فتلفني فيها و بعبارة اخرى بذلت نفسها لخلاصي وقضت في ذلك المدفن الثلجي . واتفق ان فتى كان مارًّا من هنالك فالتقطني واخذني الى الدير الذي ربيت فيهِ ولما كبرت اخبرتني الراهبات بذلك وان جثة والدتي قد دُفنت في مدفن الغرباء فبحثت عن قبرها حتى عرفتهُ وكنت ازورهُ دائماً . ثم دفعني الشوق الى معرفة والديَّ ففتحت المحفظة ووجدت الاوراق وعلمت منها كل شيء . فلما سمع ارمان منهـا هذا الحديث بُهت ووقف كالمأخوذ ثم قال أولا تعلمين من الفتى الذي التقطكِ من وسط الثلج . قالت قد بحثت عنهُ ايضاً فلم اقف لهُ على اثر وحبذا لو قُسم لي ان اراهُ لاقدم لهُ الشكر الذي يستحقهُ من خلص نفساً من الموت . فجثا ارمان امامها وقال بل قد وفيتهِ اكثر مما يستحق يا اماليا فقد انقذتهِ من موت اشنع وانلتهِ اعظم سعادة بقبولكِ اياهُ حبيباً لكِ . ثم اخبرها بقصتهِ من البداءة الى تلك الساعة

واقترن ارمان باماليا فعاشا حياةً سعيدة لا يشوبها كدر وكانا يزوران في كل سنةٍ ضريح والديهِ ووالدتها